قصة مصرية

نفيدة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

نشأت في بيت لم أكن أجد فيه من يكلمني لا لقلة في أهله ، ولا لبكم يعقد ألسنتهم ، بل لأن مشاغلهم كانت تصرفهم عني . فجدتي - جدتي لأبي - كانت لا تفارق السجادة - أو الفروة على الأصح - وفي يدها السبحة التي لا أذكر أن الخيط الذي ينظم حباتها انقطع ، وشفتاها لا تكفان عن الحركة والتمتمة بما لا أعرف من الأدعية والصلوات على النبي . وما أكثر - وأطول - ما كنت أقعد أمامها محدقاً في هاتين الشفتين الدائبتين دؤوب الليل والنهار .

وكانت ربما التفتت إلي فتبتسم وتدنيني منها وتمسح لي رأسي ثم تبسط يديها بالدعاء إلى الله بصوت يبرح به الضعف وتبحه الحسرة ويهدجه الألم والأسف لحسرتها إليه بعد وفاة أبي . ثم تربت على كتفي وتميل على وجهي الصغير بفمها الأدرد وتقبلني فتخرج شفتاها صوتاً كهذا : « مق » . وتلك أمي لا تزال مصروفة عنا بشئون البيت من طبخ وغسل وكنس ونفض ، ومن حمام تسقيه وتطعمه ودجاجات لا تنفك تجس حوصلاتها ، أو تصبعها لترى فيها أم ليس فيها بيض ، أو تنتف ريشها . وكثيراً ما كنت أقف أنظر إليها وهي تتناول فراخ الحمام وتزقها أي تمج في مناقيرها الماء والحب . ولا آخر لعمل السيدة في البيت . ولم يكن لنا في ذلك الوقت خادمة ؛ وكانت أمي تنهض بالأعباء كلها اقتصاداً في النفقة ؛ فكانت هي تطبخ الطعام ، وتكنس الغرف ، وترتب الأثاث ، وتخيط لنا الثياب ، وتصنع كل شيء إلا أن تخرج لتشتري الأشياء التي نحتاج إليها لطعامنا ؛ فقد كان رجل من أتباع أقاربنا الذين يقيمون في أجنحة أخرى من هذا البيت الكبير يقوم لنا بذلك . وكانت عمة أبي معنا ، ولكنها كانت عجوزاً جاوزت المائة ، وكانت تجلس وساقاها ممدودتان أمامها ، ورأسها مستند إلى وسادة ، وظهرها لا على الديوان ؛ وكان كلامها هذياناً فكنت أضحك منها أحياناً ؛ ثم أمل ذلك وأتركها لهذرها الذي لا ينقطع

وكنت إذا شعرت بالشوق إلى مكالمة أحد أنحدر إلى فناء البيت ؛ وكانت فيه غرف كثيرة يقيم فيها أتباع الشيخ قريبنا ويحيون الليل بقراءة الأوراد . وكانت هناك أيضاً ميضأة ومصلى فكنت إذا رأيت الشيخ مقبلاً أندس بين المصلين وأروح أقف وأركع وأسجد كما أراهم يفعلون . ولكن هؤلاء كانوا يرونني صبياً صغيراً فينظرون إلي ويبتسمون - لأن أفواههم مشغولة بالتمتمة - ولكن لا يكلمونني . غير أنه كان هناك في أكبر غرفة في الفناء رجل ليس من الأتباع ، ولا هو يعنيه أمرهم أو يشاركهم فيما يصنعون . ولا أدري إلى هذه الساعة كيف سكن هذه الغرفة ؛ فما كان يعطي الشيخ شيئاً ، وكان الشيخ يستنكف أن يؤجر بيته أو بعضه . وكان هذا الرجل يصنع أزرار

الطرابيش ؛ فكان يطيب لى أن أجلس إليه ألاحظه وأحادثه ، أو أستمع إلى حديثه وقصصه ؛ وكان يحادثنى كأنى رجل كبير لا طفل صغير ، وكان يهدم خيوط الحرير المصبوغة ويفتلها ويعقد أطرافها ويجمع كل بضعة خيوط معاً ثم يثنيها ويربطها ، ثم يدقها على قالب من القوالب التى تتخذ لكى الطرابيش . وكانت لهذه الخيوط رائحة لا أزال أذكرها ، وإنى لأجدها الآن فى أنفى وأنا أكتب ذلك . وقد علمنى صناعته فكان يدع لى الخيوط فأفتلها وأثنيها وأعقد أطرافها وأفعل مثل ما أراه يفعل بالدق على القالب . ثم يعود إلى فينظر فيما صنعت ويصلح لى أخطائى أو يثنى على حذقى . وكان يكل إلىّ ذلك كلما قام لإعداد طعامه أو خرج لشرائه . وفى وسعى أن أقول بلا مبالغة أنى قلما تعشيت إلا معه ؛ فكنت أصعد فأجىء بطعامى وأضيفه إلى ما عنده ، فنأكل معاً . ولكنى لم أكن أصنع هذا إلا إذا كان عندنا طعام يليق أن يقدم إلى غريب ؛ أما إذا كان فولاً أو عدساً أو ما هو من هذا القبيل فقد كنت أخرج فأشترى زيتونات وشيئاً من الجبن « والحلاوة الطحينية » وأعود بها إليه فيؤنبنى على فعلتى وينهانى عن العود إلى ذلك ، فأصارحه بأن طعامنا الليلة فول أو عدس وأنى لا أحبه ، فكان يحدث أن يقول لى إنه يحب هذا الطعام ويرجو منى أن أصعد وأجيئه بشىء منه فأستغرب ولكنى أطيع . فلا عجب إذا كنت قد أحببته وألفته . ولم يكن أغرب من هذه الصداقة بين رجل جاوز الأربعين وطفل فى التاسعة من عمره . وقد ألفنى كما ألفته وتعلق بى كما تعلقت به ؛ فكان يناديني إذا أبطأت عليه فأستبطىء النزول على الدرج وأركب الدرابزين لأن التزحلق عليه أسرع

وكانت له بنت أخت تزوره من حين إلى حين . رأيتها أول مرة فى ليلة شتوية كثيرة المطر شديدة البرد ، وكنت ألعب فى الحارة ، فلما أخذ المطر ينهمر فجأة ذهبت أعدو إلى البيت . ولمحت وأنا أجرى ضوءاً فى غرفة صديقى فاشتهيت أن أخبره أن السماء تمطر وأن الريح تعصف . ودخلت الغرفة ثم وقفت على العتبة فما رأيت المصباح المألوف وإنما رأيت ناراً موقدة ؛ وكانت ألسنة اللهيب عالية فرأيت أول ما رأيت كفاً بدت لى كأنها — ولسان النار من ورائها — مرجان شفاف . وطالعنى محيا فتاة صغيرة على هذا الضوء المضطرب فرأيت شعراً أسود يتوهج هنا وههنا ، وضفيرتين فى طرفيهما خيوط من الصوف تسح عليها الشعر استراحتا على جانبى الصدر ، وأنفاً فى عرنينه نتوء قليل وفى مارنه لين وفى أرنبته انثناء إلى فوق ، وعينين ضيقتين طويلتين مائلتين بعض الميل ؛ وكانت الحدقتان تلمعان كأنما تطلان من شقين وفى نظرتهما من وراء الأهداب الوطفاء معانى الرضى التام والسكون العميق والاغتباط الذى لا سبيل إلى العبارة عنه . وكانت هذه المعانى على الفم أيضاً ، وكانت الشفتان رقيقتين وفى العليا منهما تلة بينة وهنة دقيقة نابتة فى وسطها ، وكانت عليهما ابتسامة أبلغ فى العبارة عن السرور من الضحك الخاجل ؛ وكان خط الشفتين موازياً لميل العينين ؛ وقد خيل إلى وأنا أنظر إلى هذه الابتسامة المرتسمة على الشفتين المتلاصقتين كأنما هى معلقة على ما تغضن على جانبى الفم ؛ وكانت نحيفة الوجه عريضة عند الوجنتين ولكنها تنتهى بذقن دقيق . وفى الديباجة حسن وفى الخدين

رى وأسالة وبضاضة ، أما العنق فطويل مستدير ، وأما الذراعان — وكانا معتمدين على الركبتين — فمستدقان

وقفت أحدق فى هـذا الوجه الذى أضاءته لى النار المضطربة الخفاقة اللمعان ؛ وخيل إلى وأنا أنظر أنى لم أر قط أجمل ولا أروع من هذا الحسن . وراعنى على الخصوص ما على الوجه من آيات السرور الباطن ، فألفيتنى أتساءل : ماذا ترى يسرها وهى قاعدة وحدها تدفأ . . ومن أين جاءت يا ترى هذه السعادة التى تومض بها عيناها وتنثى بها هاتان الشفتان الصامتتان . . . وأحسست أن أنفاسى أسرعت وأن الدموع تجول فى عينى ، فقد كانت الفتاة جميلة وكانت الروعة قد غمرت صدرى — بل ملأ قلبى الخوف كأنما أنا أشهد الحياة نفسها لا إنساناً فانياً مثلى . وارتفع لسان النار فجأة وخفق ضوءها على محياها المبتسم ، فخيل إلى أن الدم يجرى كالمجنون تحت جلدها الرقيق . وكانت هى ساكنة لا تتحرك ولا تزايلها ابتسامتها الهادئة المرتسمة على عينيها الضيقتين المائلتين وشفتها الطبق الشفتين . نعم . كانت الحياة نفسها تنظر إلى من عينيها . . وبعينيها

رأيتها بعد ذلك مرة أو مرتين فى نحو عام . وعلمت من صديق خالها — أنها يتيمة وأنها تقيم مع عمها وتزور خالها أحياناً — وأكثر ما تكون الزيارة فى الصباح حين أكون أنا فى المدرسة ، ولكنها لا تبقى معه إلا ساعة أو بعض ساعة . وقد حاولت أن أكلمها ولكنى كنت أستحى أن أطيل الوقوف معها أو الجلوس إليها ، وكانت هى تحدق فى وجهى ولا تطرف حين تكلمنى ولا أذكر ماذا كانت تقول ، وإنما أذكر كيف كانت لهجتها هادئة وحالها بادى الوثاقة كما ينبغى أن تكون الحياة

وكنت أسألها أحياناً وأنا لا أجد كلاماً أقوله لها غير ذلك : « هل تلعبين الحبل ؟ » . . ولا أصغى الى جوابها بل أروح أفكر فى جمالها وأعجب له . وأسأل نفسى مستغرباً : « ماذا وراء هذه العين يا ترى ؟ . لماذا أراها سعيدة دائماً بلا سبب أعرفه ؟ » وأشتهى أن أسألها عن ذلك ، ولكنى آنس من نفسى جبناً فأسكت

ومضت الأيام وتعاقبت السنون وكبرت وعرفت الأدب والقراءة ، فصار كل ما أقرأه عن الحب فى شعر الشعراء وفى وصف الروائيين يدور حول ذكرياتى القليلة منها ، وابتسامتها الساكنة ووجهها الجميل وسعادتها الهادئة . وكان زملائى فى المدارس يذكرون مغامراتهم ويتحدثون بها ويباهون ، وكنت أنا أسمع وأسكت وأتعزى بأن هـذا الذى يلهجون به ليس من الحب فى قليل أو كثير ، وأقول لنفسى إنى أعرف ما لا يعرفون — وأعرف ما أعرف بالتجربة . ومع ذلك لم يخل هذا الصدر من أيامى مما يسمونه المغامرات ولكنها لم تكن كثيرة أو باعثة على الرضى . بل كانت على النقيض سبباً فى السخط على نفسى واحتقارها فآليت لا أنصرف عن هـذا العبث . وأقبلت على الدرس والتحصيل ، واشتغلت بالشؤون العامة فصرت أحضر جمعيات الخطابة . بل ألفت مع إخوان لى جمعية للخطابة ؛ وعنيت بقراءة الصحف فكنت على صغرى أقرأ كل يوم ثلاث جرائد سياسية ، وكنا جميعاً من أنصار مصطفى كامل وعشاقه فى ذلك الزمان

ثم جاءت الحرب العظمى فشغلتنا بأنبائها ، وبالاختلاف على نتائجها المحتملة وبالخوف على أنفسنا من الجواسيس والاعتقالات التى كنا لا نأمنها ، ولا نستطيع أن نعرف الطريق الى اتقائها ، ولكن يوما من أيام تلك الحرب أذكره ولا أنساه . وكان لى صديق داره قريبة من دارى ولم يكن معه أحد فى بيته ، وكان السهر محرما بعد الساعة التاسعة . فكنت أقضى عنده السهرة فى الأغلب ولاسيما فى الصيف فأرانى يوما مسدسا ورصاصات ، فجعلنا نتدرب على اطلاقها ونرمى بها باب الحمام ، ولم نكن نخشى أن يسمعنا أحد لأن البيت كان بعيدا عن العمار . ثم افترقنا . واتفق أن زارنى بعد ذلك ونسى عندى مسدسه ولا أدرى كيف كان يجترىء على حمله معه . فوضعت المسدس فى درج المكتب ونسيته فيه وتكدست فوقه الأوراق على الأيام . فحدث يوما أن جاءنى صديق وثيق الصلة بالسلطة العسكرية ، وأخبرنى أن بيتى سيفتش الليلة ، فشكرته ولم أعر الأمر اكتراثا لأنه ليس فى بيتى ما أخشى على نفسى منه . فلما كان العشاء جاء ضابط انجليزى ومعه من المصريين ضباط وجنود ، فدخلوا المكتب أول ما دخلوا ، ورأى الانجليزى الكتب الكثيرة على رفوفها ، فأقبل عليها يتأملها ، فألفاها كلها كتب أدب ، فجعل يقلبها وينظر إلى ، ثم سألنى عن عملى فقلت «مدرس» فاطمأن واعتقد فيما رأى أنى رجل مأمون الجانب وأرسل المصريين يفتشون بقية البيت ووقف هو معى فى غرفة المكتب ، ثم دنا من المكتب وجعل يقلب ما عليه من الأوراق المنتشرة بغير احتفال ، ثم فتح درجا وألقى عليه نظرة ثم رده وشد الدرج الثانى — ولم تكن للأدراج مفاتيح — فجمد الدم فى عروقى ، فقد تذكرت المسدس فجأة ، ولم أستطع من فرط الجزع أن أدعو الله أن ينقذنى ، وكان الاعدام عقوبة من يحمل سلاحا كهذا بلا ترخيص — أو هكذا أعلنوا — ولكن الله سلم فرد الرجل الدرج ، وكان زملاؤه قد عادوا فحيا وانصرف وهو يبتسم ، وأمله كان يعتقد أن تكليفه تفتيش هذا البيت سخافة مطبقة

وما كادوا يذهبون حتى أسرعت الى المسدس فقذفت به فى بستان مجاور لبيتنا وتنهدت . ولم أطق البقاء فى البيت بعد ذلك من فرط الاضطراب فخرجت أمشى على غير هدى ، وإذا بى فى بعض الطريق — طريق حدائق القبة — ألتقى بفتاتى القديمة — عرفتها على الرغم من طول الزمن وعرفتنى هى كذلك ولم تنكرنى ، فصحت بها كالأبله « نفيدة . . . أنت . . . »

فابتسمت لى ابتسامتها القديمة الهادئة ولم ترد ، فقلت لها « من أين والى أين » قالت «الى البيت» فمشيت معها اليه . وكانت شقة فى عمارة عند « الحمدى » فدعتنى الى الدخول فلم أتردد ، فإنا صديقان قديمان . ولم أر فى بيتها غيرها فلم أستغرب فإنها يتيمة ، ولكنى لم أعرف من أين جاءت بهذا الأثاث الحسن وإن كان قليلا وعلى قدر الحاجة . واتفقت معها على يوم نخرج فيه للتنزه فى القناطر أو حديقة الحيوانات فهزت رأسها أن نعم فتركتها ولم أسألها عن حالها وكيف تعيش

والتقينا فى الموعد المضروب . وكان النساء يتقنعن فى ذلك الوقت ولا يخرجن إلا فى الندرة القليلة بوجوههن سافرة ، فركبنا عربة يجرها جوادان هزيلان ومضينا الى حديقة الحيوانات ،

وجلسنا على دكة منعزلة ، وقضينا أكثر الوقت صامتين ، ثم فتحت لى قلبها عن الزمن الماضى وحبى الصبيانى لها وكيف طال عمر الحب وامتد الى الحاضر فلم ترد على أن ابتسمت — كعادتها — وقالت « لا أدرى لماذا أرى الناس يجنون بى »

فأحسست أن لوحاً كبيراً من الثلج وضع على قلبى . . الناس يجنون بها . . . الناس . . . إذن هناك مجنون . . أو مجانين بها غيرى . . . ودار رأسى وذهبت أسائل نفسى عنها كيف تعيش . . ولم يخطر هذا من قبل ولكنه خطر الآن . . نعم كيف تعيش هذه التى يجن بها الناس . . . وأين وكيف ترى هؤلاء المجانين كلهم . . . لابد أنهم كثير . . ثم أن يجيئون . . إلى أنا صديق صباها فلا عجب إذا كنت أعرفها — ولكن غيرى . . . غيرى . . . .

وقطع على هذه الخواطر المزعجة سودانى فى ثياب الرد نجوت . وكان كهلا ولكنه عشى معتدل القامة كالرمح فدنا منها وحياها باسمها وسألها عن حالها وعينه تومض ، فردت عليه برزانة وسكون ومن غير أن تفارقها ابتسامتها المطبوعة ؛ ولم يطل الوقوف فمضى عنا وقد عرفت منها أنه ضابط فى الجيش وأنه الآن فيما يسمى الاستيداع وإن بيته فى العباسية — قرب « المحمدى » فلم أقل شيئاً ولكنى قلقت — أو على الأصح زدت قلقاً وصرت أناجى نفسى بأن أسأل هذه طريقة حياتها . . .

وتعددت المقابلات بيننا والخروج إلى الحدائق العامة وكنت أعود بها إلى بيتها فى الليل فتدعونى إلى مقام قليل فألبى ونذهب نتحدث كأننا رجلان لا رجل وامرأة ؛ فرأيت منها شيئاً فشيئاً وعلى الأيام ما أقنعنى أنها ليست الفتاة التى أحببتها فى صغرى ، وأنها لا أكثر ولا أقل من امرأة كغيرها من النساء . ولا أدرى الآن وأنا أكتب هذه السطور أى شىء كنت أحسبها قبل أن أتبين أنها ليست سوى امرأة ، ولكن الذى أدريه أنى ظللت أحبها على الرغم من ذلك وأنى جعلت أحاول أن أقنع نفسى بأنها كما كنت أتصورها — على الأقل فى حقيقتها الكامنة ، ولكن حبى القديم لها تغير فلم يعد فيه أمانى بخيال بل صار حباً لامرأة معينة . وليس فى هذا ما يدعو إلى العجب فإن الرجل يحب المرأة لأنها امرأة ، ولأن فيها من بواعث الاغراء ما يكفى لاثارة الرغبة فيها والتعلق بها ، ولكن هذا شىء لم أكن قد تعلمته فى تلك الأيام فرزقنى الله فى شخص « تهيدة » معلماً لا يفتر ولا يتردد ولا يترفق بالمثل العليا وصور الكمال وغير ذلك من الأفلاطونيات السخيفة . وكان أول ما تعلمته — أو من أول ذلك — أن من الممكن أن يحب الرجل حباً عميقاً طاغياً امرأة لا يحترمها ولا يرى لها مزية ولا ينطوى لها على إكبار أو مودة أو صداقة ، ولا يستطيع أن يتفاهم معها ويشركها فى نفسه وخواطره وآماله ومخاوفه وعواطفه . . امرأة لا يرى فيها إلا الأنثى منحطة . . بل امرأة يشعر بالشقاء وهو إلى جانبها وبالملل والضجر من قربها وحديثها . . نعم تعلمت ذلك . . وكان هذا ما تعلمته شيئاً فشيئاً يبدو لى مدهشاً ويخيل إلى أن الحال فيه مقلوب والآية معكوسة ، ولكنى الآن أضحك من نفسى وأسائلها : ولم لا يعشق الرجل بالله امرأة كهذه ؟ . . وأين تراني كنت أعيش يومئذ فلم أر أن كثيرين من الرجال يعشقون نساء ليست لهن أية مزية . . .

نساء هن فى الحقيقة كوم عظيم من صنوف الانحطاط ... ونساء يحبين رجلاً ساقطين منحطين لا يساوى الواحد منهم ملء أذنه محالة ... ولكنى كنت فى ذلك الوقت أعتقد أن الحب شىء سام جداً وأنه سماوى لا ينبغى أن يخالطه إلا الاعجاب والعبادة

وكانت كل لحظة أقضيها مع تفيدة تزيدنى إيقاناً بأنها عاجزة عن السمو بنفسها الى المرتبة التى وضعتها فيها فى حداثتى ، وكان يزعجنى وينغص عيشى ويسود الدنيا فى عينى هذا التباين بين الواقع والصورة القديمة التى احتفظت لها بها فى نفسى ... وتغير حبى لها كما قلت واشتهيتها وصبوت إليها ولكن هذا التحول لم يعفنى من التنغيص والعذاب وقد كنت أخجل مما صرت أحسه لها وأعنف نفسى على ذلك وأزجرها عنه . وكانت هى ترى ضبطى لنفسى ورياضتها لها على العفة وتعلق بخيالاتى وسخافاتى وأوهامى فتمتعض وتظهر لى التأفف والتبرم ولا تكتمنى الضجر الذى يثيره حديثى ولها العذر فقد كنت أرتفع بالكلام عن طبقتها واتركها على الأرض واذهب أحلق فى أجواء لا تستطيع أن تذهب وراءى فيها . وكنت أنشدها ما أقوله فيها من الشعر فيسرها أنها وجدت شاعراً يحبها كل هذا الحب ويتغنى باسمها وأن يقرأ الناس ما يقوله فيها وما يصف به وجده لها ، ولعلها كانت ترى فى هذا إعلاناً ... ولكنها لم تكن تفهم ما أنظم أو تقدره ؛ وكثيراً ما كانت تمط شفتيها ساخرة . وربما قالت لى : « ألا تستطيع أن تقول كلاماً حسناً ؟ » فأهز رأسى وأقول لنفسى إنى وقعت وقعة سوداء وأنى يجب أن أصدغها وأنها لا تصلح لى ولا أصلح لها لأنها لا تفهمنى ولا أنا أيضاً مع الأسف أستطيع أن أفهم هذه الطبيعة البادية التى يكون فيها الجمال ستاراً لكل ما هو منحط ...

وكانت تدعونى كل ليلة الى دخول بيتها حين أعود إليه ، وكنت ألبى فى بعض الأحيان فأقعد معها كالصنم من شدة الكبح فلا تلبث أن تتثاءب فأقوم وأنصرف فلا تعنى بأن ترافقنى الى الباب فيسوءنى ذلك ولكنى أراجع نفسى وأقول أنه ليس بيننا كلمة فاننا صديقان قديمان . فقالت لى ليلة وقد دنونا من البيت : « لا تنصب إذا لم أدعك الى الدخول » فسألتها بوقاحة : « هل هناك غيرى ؟ » فلم يسؤها ذلك ولم يظهر عليها إلا امتعاض منه ، وقالت بابتسامتها الهادئة : « يخيل الى أنك لا تحب الوجود معى فى البيت ... شاعر ... تحب الرياض والبساتين والماء والسماء والنجوم . . . أليس كذلك ؟ » فضحكت وإن كنت لم يفتنى ما فى كلامها من التهكم والزراية وحدثت نفسى أن هذه دعوة صريحة لا يليق أن أغضى عنها مخافة أن يودى الاعضاء الى القطيعة والجفوة . وكانت هذه مغالطة منى لنفسى فقد كنت أنا أريد ذلك ولكنى كنت أصرف عنه نفسى وأقطعها بجهد فقلت لها : « بل سأدخل الليلة — إذا سمحت بالطبع — وسترين أنى أحب بيتك كما أحبك . . وإنى آنس بك فيه أنسى بك فى الرياض وفى الزورق السابح على وجه الماء ... »

قالت : « صحيح ... »

وأحسست من نبرة صوتها أنها ارتاحت الى كلامى وأنها استغربته فى الوقت نفسه .

ودخلنا وأغلقت الباب وراءها كعادتها فلم أمهلها بل طوقتها بذراعى فى الدهليز وقبلتها .. على خدها فأدارت وجهها ومنحتنى فمها ..

وكنت أسخط على نفسى بعد كل ليلة وأرميها — نفسى — بالانحطاط ، ولكنى ألفت ذلك فصار الأمر عادة كالتدخين وغيره مما يعتاده المرء ويتأفف منه ويود لو كف عنه مع ذلك ولا يكلف نفسه جهد المقاومة وعناءها . وبقينا هكذا زمناً غير قصير وعرفت أن لها أصدقاء غير قليلين فقد كنا نلقاهم فى الطريق فيومئون اليها بالسلام فتبتسم لهم ولكنهم كانوا لا يدنون منها ولا يكلمونها كما فعل الضابط السودانى فى حديقة الحيوان . ولم أكن أعبأ بذلك فقد كنت أرى أنى منفرد بها وإن كنت لا أعلم ماذا تصنع فى غيابى ، فما كان يعنى أن أظل معها كل ساعة . وكنت أروض نفسى على الاطمئنان والثقة لحاجتى إليهما لا لأنى واجد ما يدعو الى الثقة والاطمئنان . والمرء فى تجربته للحياة يضطر الى خداع نفسه ومغالطتها فى الحقائق — أو ما يعتقد أنه الحقيقة ليستريح قليلاً . ويتصور كيف تكون حياة من لا يزال فاتحاً عينه متربصاً مترصداً ليحيط بالعيوب والمخازى ، ومن لا ينفك يستمع الى ما يهمس به فى أذنه سوء الظن الطبيعى .. وكثيراً ما يكون المرء على حق فى سوء ظنه . ولكن المرء يعرف بالتجربة أن وساوس الظنون تنفى كل راحة وتحيل الحياة جحيما . ويضنيه التعب فيطلب الراحة ويعرف من تجربته للناس أن الناس سواسية فينتهى بأن يقول لنفسه إنه ليس موكلا باصلاح الكون وأن الأولى به أن يريح نفسه ويعفيها من العناء الباطل . وماذا كان يعنيني من أمرها فى غيابى وأنا قد أيقنت من زمن طويل قبل هذا أنها غير تلك التى كنت أحلم بها وأنها ليست إلا امرأة عادية جداً لا أكثر ولا أقل . وهبنى اطلعت على ما كانت تخفى عنى فهل يزيدنى هذا علماً بها ومعرفة لحقيقتها ؟ كلا ..

ولم يكن هذا المنطق يقنعنى أو يريحنى ولكنه كان المنطق الذى اضطررت إليه وسكنت على رغمى . على أن الأمر لم يطل فقد جاء يوم اعتذرت لى فيه بأنها مسافرة فاستغربت ، فما أعرف لها من تسافر إليه ، ولكنى سكت ولم أقل شيئاً . ورأيتها بعد أيام فسألتها عن رحلتها ورجوت أن تكون كما أشتهى لها ، فقالت بضجر متكلف لم يخف على : « أوه أبداً . كانت رحلة مملة ... إنك تعرف هؤلاء الفلاحين وكيف يعيشون . ليس فى حياتهم أى تسلية »

ومضت أيام فعادت تعتذر من التخلف عن لقائى لأنها مدعوة فى بيت صاحبة لها ، فلم أجادل وتركتها . وتكرر بعد ذلك الاعتذار وتوالى انقطاعها عنى ، وكنت أحياناً أقسم أن أهملها وأبقى أياماً لا أسأل عنها لأعرف أعادت أم هى لا تزال مع هؤلاء الذين ظهروا فجأة فى حياتها ولم أسمع بهم مرة واحدة قبل ذلك كل هذه الشهور . وأحياناً كنت أضعف فأذهب إلى بيتها فتفتح لى وتلقانى كأنها كانت معى قبل ساعة ولا تسألنى لماذا غبت ولا ماذا كنت أصنع وكيف كنت أقضى الوقت . لا .. لا شئ من هذا على الاطلاق فأشعر بالغصة ولكنى أكتم الألم ..

وقلت لها مرة وقد همت بالاعتذار من الاضطرار إلى إرجاء لقائى : « لماذا تكذبين على ؟ »

فلم أر أن حدتى أو ألفاظى الوقحة أغضبتها ،

وكأنى كنت أحبها وأثنى عليها فقالت : « إنك ظريف » ظريف ... أهذا ما تجيب به حين اتهمها بالكذب وأرمى باللفظ الجارح فى وجهها ..

وكنا قد دخلنا فى الشتاء وكنت أعرف أنها لا تحب أن تكون فى غير بيتها بعد العشاء على الأكثر ، فذهبت إلى قهوة قريبة من مدخل الحارة وقعدت عليها من الظهر لأرى ما يكون . وانحدرت الشمس وأنا لا أرى شيئاً ؛ نعم رأيت ناساً كثيرين راكبين أو ماشين وباعة متجولين ومركبات الخ الخ ولكنى لم أرها تدخل أو تخرج . وكانت نفسى لا تفتأ تنازعنى أن أنهض منصرفاً وكنت أحدثها بأن من السخافة والحماقة أن أتعب نفسى بهذه الجلسة الضنية لأعرف ما أعرف . وهل فى الأمر سر ... أليست قد ملتنى وتبت لى وجفتنى واعتاضت منى سواى كائناً من كان هذا السوى .. وما حاجتى إلى علم ما أعلم ... ولماذا أحقر نفسى وأمرغ وجهى فى التراب وأضعه عند قدمى امرأة سوء كهذه .. وأهم بالنهوض ولكنى أحس كأنى قد سمرت إلى الكرسى أو لصقت به ، وبتجمد وهمى حتى لا ألتفت كأنما أريد أن أرى المسامير أو الغراء أو غير ذلك مما ربطنى بالكرسى وألزمنيه فأنا لا أقدر أن أنهض عنه ، ويضحكنى أمرى أحياناً ثم تغلبنى الكآبة والحزن — على نفسى وعليها — ثم أرانى غضبت وثرت وهاجت نقمتى على هذه المستهترة التى لا تبالى ولا تدرك ثم أراجع نفسى فأسألها : « ماذا تريدين منها أن تبالى ؟ أمن العدل أن أطالبها — أو أتوقع منها — أن تحفل ما لا تدرك ... » واستسخف من نفسى أن أروح أنتظر من هذه العامية — على الرغم من أنها تعلمت شيئاً — أن ترتفع بنفسها إلى حيث ارتفعت أنا ، ثم ارجع فأقول : إن المسألة ليست مسألة تعليم أو ثقافة وإن كان التعليم يهذب ، وأن هناك أميات كثيرات هن جميعاً أرفع منها وأسمى وأشرف وأعظم فطنة وأحد ذكاء ، وأن العبرة بالطباع والمعول على الفطرة ..

وانقضى النهار فى هذه الهواجس أو الخواطر وأقبل الليل ومعه البرد فاحتجت أن أقوم وأن أتمشى لأشعر بالدفء فرحت أتمشى فى الحارة وعينى على بيتها وأنا فى حماية الظلام فسمعت بعد قليل صوت باب يفتح ويغلق فدنوت على أطراف أصابعى فإذا هو بابها وإذا الخارج منه هو الضابط السودانى وكاد يختفى فى الظلام ، ولكن الباب فتح مرة أخرى وخرج منه صوت كهذا « هسسسسس » فوقف الرجل والتفت ثم كر راجعاً ووقف أمام الباب ، وكنت على مسافة مترين منه فأدرت ظهرى إليه ولويت عنقى لأكون أقدر على السماع فسمعتها تقول له :

« الساعة الثالثة تماماً . فإنى أخشى أن يجىء ذلك الثقيل للسؤال عنى .. »

فمشيت ولم أقف لأسمع رده

ابراهيم عبد القادر المازنى

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

الطبعة الرابعة

ترجمها أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

وثمنها ١٥ قرشاً